الرواسب الأعرابية في لغة مصر

للدكتور عمر فروخ

أعرب بكلمة أعرابيَّة هنا مايشير إليه الباحثون عادة بالتعبير « ساميّة » أو اللغات السامية هذا تعبير سكَّه نفر من الدارسين للتوراه ، فى سنة ١٨٣٦ للميلاد . وعَنَوْا به ن لغات البشر افترقت بافتراق أولاد نوح الثلاثة سام . وحام ، ويافث وبما أن هذه التسميه خاطئه ، وبما أن اللُّغات التى يتكلَّمها فى عرقىّ آسيا وفى النصف الشمالىّ من قارة إفريقية (من أقصى شرقىّ إفريقية إلى أقصى غربيّها) قد نشأت . فيما يرى نفر من الباحثين ، فى حياتنا البدوية أوالأعرابيَّة وفى سبه جزيره العرب فى الراجح . وإنّى أميل إلى أن أسمِّى لغاتنا العَمَديَّة (ويقولون الأكَّاديَّة والأكدية) والبَابليَّة والأشوريَّة والآراميَّة والحبشيَّة والعربيَّة وأخواتها كلها وبناتها · اللُّغات الأعرابيَّة

ومن الإنصاف والحقّ أن أقول إنّ هذا التبديل فى هذه التسمية اقتراح لزميلى وصديقى الدكتور زكى النقَّاش المولود عام ١٨٩٦ . مد الله فى عمره ومتَّعه بالصِّحَّة والطمأنينة

* * *

بدأ هذا الموضوع – موضوع الرواسب فى اللُّغة العربية – يتجلَّى لى فى أثناء دراساتى اللغويَّة والأدبية ورجوعى المتكرِّر إلى القواميس وكتب اللغة . وأوَّل ما أثار اهتمامى كان وجود المترادفات والأضداد فى اللغة إذا كانت ألفاظ اللغة للتعبير عن مدارك ومُسمَّياتٍ معيَّنةٍ . فلا يجوز أن يكون فى اللغة كلمة تدلّ على مدركين ولا أن يكون فى اللغة لفظان يدلان على مدرك واحد

لماذا نقول : « مَرَّ » للشخص الذى يقطع المسافة أمامنا من جانب إلى آخر ، ثمَّ نقول : « مُرٌّ » للشيء الذى يصبح طعمه قابضًا لألياف اللِّسان (بخلاف ما يفعل الطعم الحلو) ؟ ونَهَرَ ونَهْر ؟

لماذا يكون معنى « الجلَل » . الشيء الكسيرَ العظيم ثمَّ الشيء الصغير الحقير ، ويكون من الأضداد ، كما جاء فى المعجم الوسيط (طبعة ١٤٠٠ هـ ـ ١٩٨٠ م ، ١ : ١٣١) ؟

ثمَّ بدت لى ـ فى أثناء دراستى القديمة والحديثة ـ أمور مغايرة للمنطق فى الصرف والنحو .

لماذا يكون الفعل « هلك » (بمعنى مات) من باب ضرب ومنع وعلم (فى القاموس المحيط ٣ : ٣٢٤) ، ومن باب ضرب ومنع (كما فى المعجم الوسيط ـ ٢ : ٩٩١) ؟ إنَّ المنتظر أن يكون هذا الفعل « هلك » من باب علم مثل مرض ، وفنى ، وبرئ المريض يبرأ (ونترك الان . سمع ، وقطع ، وفعل وعمل) .

ثمَّ بدت لى ـ فى أثناء دراستى ـ أمور مغايرة للمنطق فى لغة مُضر ، وعذَّب الأُساتذة بها ألسنتنا وعقولنا فى تخريجها وإعرابها ؛ كقول الشاعر القديم .

يا أيُّهـا الرجل المزجى مطيَّته
سائل بنى أسد : ما «هذه» الصوت ؟

أو قول الاخر :

إنَّ أبَاهـا وأبا أبَاهَـا
قد بَلَغَـا فى المَجْـد غَايتَاهَا

أو كقول امرئ القيس فى معلَّقته :

فَعَـادَى عِدَاءً بين ثور ونعْجَة
دِرَاكا ولم يَنْضَح بماءٍ فيغسل

والقاعدة فى النحو المضرىّ : ؛

ولم ينضح بماءٍ فيغسلا

وكقول امرئ القيس نفسه فى معلقته أيضًا :

كَأن ثبيرا فى عرانين وبله
كبير أُناس فى بجاد مزمّل

والقاعدة فى النحو العربى المضرىّ .

كبير أُناس فى بجاد مزمّل (برفع مزمّل) .

هذه كلُّها بلا ريب أخطاءٌ لا تستحقّ أن يُفتح لها أبواب فى كتب اللغة وكتب النحو . والحلّ الصحيح لهذه الشواذ أن نقول : إنّ امرأ القيس وزميليه من قبله قد أخطأوا « وَكَفَى اللهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَال »

غير أن هنالك أشياءَ أخرى لا سبيل إلى عدها أخطاءً شخصيَّة ، لكَثْرَةِ وُرودها فى الشعر والنثر وفى القرآن الكريم أيضًا ، حتّى إنها تمثِّل قاعدةً لا شكَّ فيها كنت مرَّة أحادث صديقًا فى هذا الموضوع ، وكان من الذين يريدون أن يفتحوا لكلّ خطأ فى النصوص القديمة والحديثة أيضًا بابًا فى تاج العروس أو فى ألفيَّة ابن مالك ولمَّا أعيانى تمسّكه بالمستحيلات ، قلت له . أعرب بيت عنترة (أو البيت المنسوب إلى عنترة) :

سكتَّ فغرَّ أعـدائى السُّكوت
وطنُّونى لأهـلى قد نَسِيت

وموضع الشاهد هنا . طنُّونى « لأهلى » قد نسيت

فقال صاحبى :

- اللام حرف جرّ زائد .

- لأهلى · مجرورٌ باللام ، بحرف الجرّ الزائد .

- نسيت : فعل وفاعل .

فقلت له حينئذ :

كيف تكون اللام حرف جرّ زائدًا ثمّ تعمل عمل حرف الجرّ الأصيل فتجرّ الاسم الذى جاء بعدها ؟ ثمّ إنّ الفعل « نسى » فعل متعدّ ، فأين مفعوله ؟ فلم يتردّد صاحبى فى أن يقول : إنّ كلمة « أهلى » هى « المفعول به » هنا . وسأرجع إلى هذه اللام فى صلب هذا الموضوع .

من هذه النقطة أصبح للموضوع حدوده المرسومة .

من أين جاءت هذه اللام الداخلة على كلمة « أهلى » فى بيت عنترة ؟

اللُّغة العربيَّة المضريَّة لغة أعرابيَّة مثل أخواتها الأشوريَّة والآراميَّة والحبشيَّة ، والعبريَّة وسواهنّ . ولكنّ اللغة العربية المضريَّة أوفر حظًّا من جميع أخواتها فى أمرين لا جدال فيهما :

* إنَّها لا تزال إلى اليوم حيَّة محكيَّة مقروءة مكتوبة كما كانت فى أيام الشعر

الجاهليّ الأول الذى وصل إلينا من القرن الثالث قبل الهجرة (الرابع للميلاد) .

أما أخوات اللغة العربية . فقد انقرض عددٌ منهنّ كالباليّة والكلدانيّه ، والأشورية ولم يبق منهنّ سوى عددٌ من النصوص تقلّ أو تكثر ومنهنّ ما لم يبق منه إلّا ألفاظ قليلة كالكنعانيّة (المعروفة عند بعض الباحثين بالفينيقيّة) وأمّا اللّغات التى بقيت حيّة من أخوات اللغة العربية المصريّة كالقبطيّة والحبشيّة ، أو كالحيّة كالسريانيّة — إلى حدّ ما — فقد خسرت كثيرًا من خصائصها الأولى .

* إنّ اللغه العربية لا تزال تحتفظ بالإعراب كاملًا أو كالكامل (لأنّنا — لا نعرف اليوم مدى الإعراب الذى كان لها من قبل — ولكنّنا نعلم أن فى اللغات الحرمانيّة ، (كالألمانية والنرويجيّة ، والأيسلنديّة خاصّة) وجوهًا من الإعراب أكثرَ كثيرًا ممّـا فى اللغة العربية ، وفيما يتعلّق بأداة التعريف التى لها فى اللغة العربية صورة واحدة ، نجد لها فى الألمانيّة عددًا كبيرًا من الصور تمّ عددًا أكبر فى اللغة الأيسلندية . ومن الأمثلة القريبة على ذلك أن للمجرور وللمضاف فى اللغة العربية حالةً واحدة من الإعراب ، على حين لهما فى اللغة الألمانيه حالان .

بعد هذه الملاحظات اليسيره نتقدم إلى الإتيان بعددمن الأمثلة لنرى ما الفرق بين الكلمة العربية المضريّة الخالصة وبين الكلمة الدارسة فى اللغة العربية من لغة أعرابيّة هى أخت للغة العربية أو من لغة غير أعرابية

إنّ الكلمة العربية هى الكلمة التى انتسجت فى الصميم العربيّة وتقلّبت فى أحوال الإعراب العربى ، سواء أكانت تلك الكلمة من أصل أعرابىّ شقيق للغة العربية أو كانت من أصل غير عربى . إنّنا إذا أخذنا اللفظ من لغتنا ثمّ رأينا له أصلًا فى لغة أعرابيّة ، فليس معنى ذلك أن هذا اللفظ غير عربى . خذ مثلا كلمة « قتل » فى اللغة العربية المصريّة ، فإنّ معناها عندنا فى العربية المضريّة « أمات » . غير أنّنا فى لغتنا المحكيّه نلفظها (قطل) (مفخّمة بالطاء) ونقصد بها « ضرب »

ونلتفت إلى الآراميّة والعبريّة فنجد هذا اللفظ نفسه بالطاء ، ومعناه قتل (أمات)

أمَّا فى العبريَّة فله معان أكثر : القتل ، الذبح ، القطع (ولعلى رأيت أنَّها فى لغة أعرابية قديمة ـ الأسورية ـ ؟ تعنى « ضرب » فهل يجوز لنا أن نقول إن الفعل « قتل » نمط دخيل فى العربيَّة أو معرَّب ؟

وفى القاموس العربى معان عديدة من جذور مألوفة منها « قصد » فى هذا الجذر جميع معانيها استقام ، اتَّجه ، توسَّط فى أمر من الأمور فلم يسرف ، اعتدل . ولكن إذا نحن استمررنا فى قراءة جميع « قصد » وجدنا « أقصد » بمعنى طعن ، أصاب مقتلا من جسم هذا المعنى من القتل هو معنى المعل « اقشد » فى الأشوريَّة فهل يجوز لنا أن نقول إنَّ المعل « قصد » لفظ دخيل على اللغة العربية المصريَّة ؟

وهناك فى القاموس العربىّ كلمة لا شكَّ فى أن أصلها عربى ، هى كلمة ديسار (وهى من كلمة « دينار يوس » اللاتينية) ولكنَّ هذه الكلمة لمَّا دخلت فى اللغة العربية تقلَّبت فى صيغ مختلفة ، فجاء فى تاج العروس دنَّر (بالبناء للمعلوم) وجمعه تدنيرًا ، تدأدأ ودُنِّر (بالبناء للمجهول) الرجل فهو مدنَّر ، إذا كثرت معه الدنانير . والمدنَّر أيضًا ما كان فيه بقع مخالفة لسائر لونه ودينار مدنَّر . مضروب أو مسكوك . وجمعوا دينارًا على دنانير (مثل ميرات على مواريث . ومرمار على مزامير) وسموا أولادهم ديسارًا (للذكور) . ودنانير (للإناث) وبسوا إلى ديسار فقالوا . شراب ديسارى ثمَّ دخل عدد من هذه الصيغ فى الشعر فحاولت هذه الكلمة أن تكون دخيلة مع الإيقان بأن أصلها قد جاء إلى لغتنا من لغة أخرى غير أن كلمة « حلَّسار » (زهر الرمَّان) تظلّ دخيلة فى اللغة العربيَّة ـ وإذ جاءت فى الشعر العربىّ ـ إذ قال الشاعر الأندلسى ابن لبال ـ ولعلَّه أبو الحسن علىّ ابن أحمد الشريشى المتوفى سنة ٥٨٣ هـ (راجع نفح الطيب ٣ ٤٤٢ والحاسية الحامسة) :

فحم دكانىّ حشاه أحمر
فقلت مسك وحلسار

ذلك لأنَّ هذه الكلمة قد لزمت صيغة واحدة ، ولم تنتسج فى الأنسية العربيَّة

بعد هذه الجولة القصيرة يحسن أن نرى عددًا من الكلمات العربية التى هى فى الحقيقة رواسبُ أعرابيةٌ فى لغتنا المصريَّة .

* قال النابغة الذبيانى فى معلَّقته .

فلا ، لعمرُ الَّذى مسّحْت كعبته
وما « هُريقَ »على الأصنام من جسد

وقف الفيروزابادىّ صاحب « القاموس المحيط » أمام هذا الفعل «هريق » ، فلم يهتد إلى وجهه فلم يشر إليه فى فصل الراء من باب القاف فى « ريق » . ومع ذلك فقد قال بعد الجذر « ريق » (٣ : ٢٣٩) :

...راق الماءُ (بالرفع) : انصبّ ... وهو يريق بنفسه عند الموت : يجود بها . وأراقه : صبَّه (٣ : ٢٤٠) .

إنَّ المعنى العام فى هذا الجذر وارد فى قول الفيروزابادىّ هنا ،ولكن الفيروزابادى لم يفطن إلى أن « هراق » صيغة من « ريق » (أو من «راق يريق ») . من أجل ذلك أورد هذه الصيغة الغريبة فى مكان آخر (٣ : ٢٩٠ – ٢٩١) وفصَّل الكلام فيها فقال :

هراق الماء يُهَريقه ، بفتح الهاء ،هِراقة بالكسر ، وأهرقه يُهريقه إهراقًا ،وأهراقه يُهَريقه إهرياقًا ، فهو مُهَريق ، وذاك اسم المعول من صيغة « أهرقه يهريقه ») مهراق ، صبَّه . وأصله أراقه يريقه إراقة . وأصل أراق أريق ، وأصل يريق يُرْيق ، وأصل يُرْيق يؤريق . وقالوا : أهريقه ولم يقولوا : أأريقه لاستثقال الهمزتين وزنة يهريقِ ، بفتح الهـاء ، يهفعل . ومهراق بالتحريك مهفعل . وأمَّا يهريق ومهراق ، بتسكين هائهما (أو هائيهما) ، فلا يمكن أن ينطق بهما لأن الهـاء والفاء جميعًا ساكنان ...

لا شكَّ فى أن الحسّ اللغوى عنـد الفيروزابادى كان فى هـذه الملاحظات مرهفًا ،ولكنَّه وصفَ ظاهر الأمر ولم ينفذ إلى لبّه ، إلى الواقع اللغوى ، لأنَّه لم يكن يعرف اللغات الأعرابيَّة .

وهنالك فى اللغة العربيَّة فعلان آخران يجريان هذا المجرى هما . «هراح–هراد». غير أن الفيروزابادى لم يفطن إلى الأوَّل منهما ،ولكنَّه أشار عرضًا إلى الثانى منهما فقال : (١ – ٣٤٨) : هرده يهرده : مزَّقه وخرَّقه . و (هرد) اللحم : أنعم إنضاجه أو طبخه حتَّى تهرَّأ كهرَّده فهرد ... وهردت الشيء أهريده أردته أريده ...

والمرتضى الزَّبيدى لم يثبت الفعل « هراح » ، ولكن لمَّا شرح قول الفيروزابادى : « هردت الشىء أهريده : أردتُّه أريده ، قال : « كهراقه يهريقه » (تاج العروس الكويت ٩ : ٣٤٤) .

هنا يأتى عدد من الملاحظات :

– إنَّ هذه الأفعال الثلاثة : هراح يهريح ، هراد يهريد ، هراق يهريق أفعال رائيَّة (تبدأ براء) .

– ثمْ هى يائيَّة مجرَّد جذرها : ريح يريح ، ريد يريد ، ريق يريق

– ثمَّ هى مزيدة بالهاء لا بالهمزة ، فهى . هراح (فى مكان أراح) ، هراق (فى مكان أراق) ، هراد (فى مكان أراد) .

– ولكنَّ الهاء التى هى هنا من حروف الزيادة قد ثبتت فى صبغة المضارع (مع أن همزة الزيادة تحذف فى الفعل المضارع فى اللغة العربيَّة . فنحن نقول اليوم : أكرم يكرم (لا أكرم يأكرم) ، ونقول : أسلم يسلم (لا أسلم يأسلم) ، وإن كان العوام يقولون دلك . يقولون : يأسلم ، يأضرب ..

هذه الأفعال الثلاثة الشَّاذَّة هى رواسب من اللغات الأعرابية متحدرة إلينا من عصور بعيدة . فالأعرابيُّون القدماء (أو جماعة منهم على الأقل) كانوا يقولون فى قتل : قَتَال (بفتح ففتح ممدود ففتح) وأما الهاء فهى فى العبرية مثلا من حروف الزيادة ، يقولون . هفعيل ، كما نقول نحن : أفعل .

من أجل ذلك ، يجب علينا إذا نحن أتينا إلى بيت من الشعر وردت فيه كلمة من هذه الكلمات الثلاث أن نصرف ذلك البيت على أنَّه شاذ فى استعمال تلك الكلمة من غير أن نتمحَّل له التخريجات .

واحتاج الشاعر أبوتمَّام إلى هذه الكلمة « هراق يهريق » فعدَّ الهاء فيها أصلية ، كما عد الألف بعد الراء زائدة ، فقال :

لَبَّيْتَ صوتًا زِطريًّا « هرقت » له
كأس الكرى ورضاب الحرد العرب

ثمَّ جاء شاعر متأخر هو أحمد بن أحمد العناياتى النابلسىّ المتوفى سنة ١٠١٣ للهجرة وكان قد رأى هذه الكلمة فى بعض قراءاته من غير أن يدرك حقيقتها ، فذكرها فى

تعرد بصيغتين اثنتين (بسكون الهاء وبفتح الهاء) فقال :

كتب الدَّمْع فَوْقَ مهراق خَدِّى
كم دمٍ طَلَّ فى الْهَوى مهراق

* جهنَّم : جهنَّم كلمة دخيلة فى اللغة العربية ، وهى فى القاموس المحيط (٩٢.٤) مرَّة ومعناها فيه «بعيدة القعر» وهى من الآراميَّة جهنَّا بحيم فاهرية ممالة وهاء مفتوحة ثم نون مشددة ممنوحة فى الآراميَّة ومصمومة فى السريانية) وهذه الكلمة انتقلت إلى اللغة العربية من الآرامية لا من السريانية بدليل أن النون فيها مفتوحة وقرينة ثانية دليل على ذلك . أن القاموس المحيط يورد الكلمة بمسها بالمد « جهنَّام » . وأمَّا الميم فهى للتعريف وهى مأخوذة من العربية الحميريَّة وعلى هذا فيجب أن تكون لفظة «جهنَّم» ممنوعة من الصرف (بخلاف ما ذكر القاموس المحيط) . وهى فى القرآن الكريم ممنوعة من الصرف

ثمَّ إن ورود لفظ «جيهينوم» فى العبريَّة اسمًا قديماً لجبل قرب مدينة القدس لا يمنع القول فى أنَّ الميم هنا أيضًا للتعريف وليس من قصدنا الآن الخروج من الرواسب فى اللغة العربية إلى الرواسب فى اللغة العبريَّة .

* وكلمة الفردوس فيها شىء من الخلاف أو شيئان من الخلاف فالشىء الأول أهى عربيَّة أم أجنبيَّة ؟ والشىء الثانى أهى من الروميَّة (اليونانيَّة) أم من الفارسيَّة ؟ ولقد تردَّد القاموس فى ذلك كله . (راجع تاج العرس ـ الكويت ١٦ ، ٣٢١)

ولسنا الآن فى معرض الفصل بين أن تكون هذه الكلمة من الروميَّة أو من الفارسيَّة ، إذ هى على الوجهين من أصل أعجمى

أمَّا الخلاف فى أنَّها من الروميَّة أو من الآراميَّة فليس محل البحث هنا ، وإنَّ العرب لم تتلقَّ الألفاظ الروميَّة (اليونانية) والعلوم اليونانية من اليونان رأسا . بل بوساطة اللغة الآرامية (السريانية)

ولفظة فردوس جاءت فى اللغة العربية فى صيغ عديدة ومعان مختلفة وجاءت القرآن الكريم مرتين « الفردوس » ، (بالتعريف ، كما جاءت فى شعر حسان ان ثابت مجرَّدة بلام التعريف) .

ولعلَّ هذه اللفظة لا ترجع إلى اللغة اليونانيَّة ولا إلى اللغة الفارسيَّة ، بل إلى

اللغات الحاصّة بشرقى آسيا ، فلقد جاءت فى الهندية وفى الأرمنيّة بمعنى البستان

وأمّا إذا نحن أخذنا برأى القائلين بأن الكلمة عربيّة ، فإنّها تكون حينئذ من الرواسب الأعرابيّة .

* اللام الدّالة على المفعول به :

كانت اللغات الأعرابيّة ـ مثل كثير من اللغات القديمة ـ معربة ثمّ بدأت تحسر حركات الإعراب . ومنذ زمن موغل فى القدم زال الجانب الأوفر من الإعراب من لغات كثيرة . غير أن اللغة العربية ما زالت إلى اليوم معربة .

والغاية من الإعراب أن يكون دالاً على أحوال الكلام فنعرف الكلمة العاملة (التى تقع بالفعل على غيرها) من الكلمة المعمولة (التى يقع الفعل عليها) وفى عدد من الأحوال نعرف ذلك من طريق المنطق من غير حاجة إلى علامة ، مثال ذلك .

ـ قطع السيف اللحم أو قطــع اللحم السيف .

ـ شرب سعيد ماء أو شرب ماء سعيد .

وكذلك إذا نحن حئنا إلى ألفاظ لا تظهر عليهــا ـ فى نحونا الحاضر ـ علامات الإعراب ، لم نر الأمر يختلف فى الجانب المنطقىّ ، كقولنا :

ـ أكل موسى الكوسى أو أكل الكوسى موسى

غير أن هنالك أحوالاً لابدّ من مراعاة الإعراب فيها حتّى يتّضح معناها ويصحّ . فإذا نحن قلنا زارت ليلى سلمى ، فمن الزائرة ، ومن كانت المزورة ؟

سيقول نفر . إن صاحب الاسم المتقدّم هو الذى زار ، وإن صاحب الاسم المتأخّر هو الذى زير هذا مقبول فى العرف لا فى المنطق ولكن هنالك أحوالاً لابدّ فيها من الدلالة الماديّة على أحد الاسمين من أجل ذلك لجأ الأعرابيّون القدماء ، فيما يبدو ، حينما فقدت لغاتهم علامات الإعراب المألوفة من قبل ، إلى أن يجعلوا فى أول المفعول به لامًا لتمييزه من الفاعل (ولعلّهم استبقَوْا هذه اللام من لغة سابقة) ، وأصبح ذلك قاعدة فى اللغة السريانية فى عدد من الأحوال .

وعندى أن هذه اللام يجب أن تكون أقدم من اللغة السريانية ، لأنَّ السريانية التى خسرت علامات الإعراب يجب أن تكون لغة أحدث عهدًا من اللغات التى كان فيها إعراب . ولنا دليل آخر فى وجود هذه اللام فى مواضع كثيرة من كلامنا وفى أدبنا وفى القرآن الكريم أيضًا . لقدمرَّ بنا قول عنترة : « وظُلُّونى لأهلى قد نسيت » .

وقد أعنانى « المعجم الوسيط » عن تتبع عدد من الشواهد هنا وهنالك لمَّا نصَّ (٢ : ٨٠٩ ، العمود الثانى ، الرقم ١٣) على أن اللام تأتى للتعدية .

كما نصَّ أيضًا (العمود الثالث فى السطر الواحد والعشرين) على أنَّها تدخل على المفعول الثانى كقول بعضهم : « أراك لشاتمى » . وقد سمى المعجم الوسيط هذه اللام مرَّةً « لام التقوية » (العمود الثانى ، السطر السادس من أسفل) وأورد شاهدًا عليها الآية الكريمة : « لِلَّذِين هُم لِربِّهم يرْهبُونَ » (أى للذين يرهبون ربهم) .

وقد كنت أود أن أمضى فى المصحف فآتى بشواهد على هذه اللام (التى أسمِّيها أنا « لام المفعوم به ») ، نحو : « حافِظَات لِلْغَيْب » (٤ : ٣٤ ، سورة النساء) مكان حافظاتٍ الغيب ، ونحو : « وما كُنَّا لِلْغَيْب حافِظِين » (١٢ : ٨١ ، سورة يوسف) مكان وما كُنَّا حافظين الغيب . غير أن المعجم الوسيط قدكفانى مؤونة ذلك الآن .

وفى تاج العروس (الكويت ٦ : ٤٤٧) سبَّح الرجل قال : سبحان الله . وفى التهذيب : سبَّحت الله تسبيحًا وسبحانا بمعنى واحد . فالقاموس ، إذن ، قد جعل الفعل « سبَّح » متعدِّيًا بنفسه فحسب . ولكنَّ هذا الفعل نفسه قد ورد فى القرآن الكريم متعدِّيًا بنفسه ومتبوعًا بهذه اللام التى تسمَّى لام التعدية . ففى القرآن الكريم : « وتُسبِّحُوه بُكْرةً وأَصِيلًا » ، و « ويُسبِّحُونَهُ ولَهُ يسْجُدُونَ » و « كَى نُسبِّحَكَ كَثِيرًا » و « سبِّح اسْم ربِّكَ الأَعلى » ثُمَّ « سبَّح للهِ ما فى السَّمٰواتِ وما فى الأَرْض » و « تُسبِّح لَهُ السَّمٰواتِ السَّبْع والأَرْض » ، وسوى ذلك من الآيات .

* حذف الياء المتطرِّفة آخرًا (فى اللغة العربية) حظًّا ولفظاً فى عدد من الأحوال . هذه الياء تحذف فى الآرامية لفظًا لا خطًّا

ويجعل على الياء خط معترض للإشارة إلى إهمالها فى اللفظ .

وأنا هنا أريد أن أجعل شواهدى مأخوذة من القرآن الكريم ، ولا أعرف تعليل ذلك هذه الشواهد هنا .

- « ذٰلِكَ ما كُنَّا نَبْغِ » (١٨ : ٦٤ ، سورة الكهف) .

- « الَّذِى خَلَقَنِى فَهُوَ يَهْدِينِ * والَّذِى هُوَ يُطْعِمُنِى ويَسْقِينِ * وإِذَا مرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ * والَّذِى يُمِيتُنِى ثُمَّ يُحْيِينِ » - (٢٦ . ٧٨ - ٨١ ، سورة الشعراء) .

- « فاتَّقوا الله وأَطيعون » (٢٦ : ١٠٨ ، ١٠٠ ، ١٢٦ ، سورة الشعراء) .

ولما وصل الرسول - صلَّى الله عليه وسلَّم إلى المدينة مهاجرًا تلقَّاه أهلها مشدين

أطلع البدر علينـــا
من ثنيات الوداعْ

وجب الشكر علينا
ما دعا لله داعْ

أيها المبعوث فينا
جئت بالأمر المطاعْ

والشاهد هنا « ما دعا لله داع » . ويجوز فى هذه القوافى كلِّها الكسر مع الإشباع . وهذا يدل على أن العرب عَرَفوا حذف الياء المتطرفة من الأسماء أيضا بالإضافة إلى الأفعال .

* الهزبر فى تاج العروس (الكويت ١٤ : ٤٣٣) : الأسد ، والشديد الصلب .

وقال صاحب التـــاج : واختُلف فى الهربر ، فقيل رباعى ، وهاؤه أصلية وقيل : الهاءُ رائدة وأصله من الربر . والربر أيضاً معناها الشديد الصلب .

ولعلّ الهاء هنا أداة تعريف دخلت على كلمة زبر لتخص بها الأسد . ثمّ بقيت صورة هذه الكلمة فى الذاكرة العربية دهرًا طويلا فنسى الناس أنَّهَا معرّفة فحَلَّوْها بلام التعريف العربية أيضاً . وعلى هذا قول بديع الزمان الهمذانى (ت ٣٩٨ هـ) فى إحدى مقاماته على لسان بشر بن عوانة

أفاطم ، لو شهدت ببطن خبت
وقد لاقى الهزبر أخـــاك بشرًا

إذا لرأيت ليثـــا أمَّ ليثـــا :
هزبرًا أغلبا لاقى هزبرا

وتعدّد أدوات التعريف فى عدد من الأسماء عند انتقالها من لغة ألى لغة معروف فى اللغات كلّها . أما الأداتان للتعريف فمألوفتان :

مرّت كلمة « المُنَاخ » العربية (مسرك الإبل ثم أحوال الجو) إلى عدد كبير من اللغات مع أداة التعريف العربية .

almanach (Fr), almanac (Eng), Almanach (Ger), almanacco (It), almanaque (Sp) almanak (Dut.). etc

وأهل تلك اللغات يقدّمون على الكلمة العربيّة المحلّاة بلام التعريف العربية أداة التعريف عندهم فيقولون مثلا :

L'almanach, tha almanac, dar almanach etc.

وفى عدد من الأحيان تأتى لام التعريف العربية فى الكلمة المنتقلة إلى اللغة الإسبانية أو فى آخرها ، أو فى أول الكلمة وفى آخرها معا ، نحو almargal (المرح) ثم يدخل الإسبان عليها أداة التعريف عندهم ، فتصبح كلمة « المرج » فى اللغة الإسبانية معرّفة ثلاث مرّات : el almagral

* المنادى المقصود بالنداء :

نحن نقول فى إعراب « يا رجلُ » : رجلُ منادى مقصودٌ بالنداء مبنى على ما يرفع به ، وهو معرفة فمن أين جاءت الضمّة ، ولم أصبح الاسم المنادى هنا معرفة ؟

نحن فى النحو ، عندنا وعند غيرنا ، لايسأل كثيرًا عن أسباب علامات الإعراب ، وإن كان لذلك كلّه أسباب واضحة ، ولكن فى الزمن الأقدم من حياة اللغة .

ونحن نعرف أيضاً أنّ كلمة كلب كانت فى اللغة الأعرابية العامّة العقدية الآشورية (بمدٍّ قصير) .

كلبون (فى الرفع) وكلبين (فى الجر) وكلبان (فى النصب) كلّها بمد قصير ، ثم أصبحت : كلبو ، كلبى ، كلبًا (بمد قصير أيضاً وبغير دون) .

ولعلّنا من أجل ذلك قلنا فى المنادى .

يا رجلُ (معرفة) ويا رجلاً (نكرة)

* ويقف المرتضى الزبيدىّ (تاج العروس الكويت ٢ . ٥٢٤) أمام كلمة « أرنب » ويضعها فى باب « رنب » ثمّ يقول . « هو فعلل عند أكثر النحويّين وأما الليث فزعم أن الألف زائدة وقال : لا تجىء كلمة فى أوّلها ألف فنون أصليّة إلّا أن تكون الكلمة ثلاثة أحرف مثل

الأرض . » . بعدئذ تردّد الفيروزابادى بين أن تكون « أرنب » مذكرة أو مؤنّثة وأورد فى ذلك أقوالا للأُدباء واللغويين والأرنب الذى هو الحيوان المعروف تجمع على أرانب .

ثم يورد الفيروزابادى كلمة « أربة » (طرف الأنف ، وجمعها أرانب أيضاً (٢ ٥٢٥)

والأرنب فى الأشوريَّة « أنَّا با » – والهمز فيه أصلية ، وجذرها « أنب » ، وهى مؤنّثة بدلالة الألف المتطرّفة آخرًا – . ومما أنَّ العرب يكرهون التصعيف ، فى كثير من الأحيان ، وقد أبدلوا النون الأُولى فى « أنَّا با » راء (وقد كان بالإمكان أن يجعلوا مكانها لاما أو حرفاً آخر قريباً من النون أو بعيدًا عنها) وكُرْه العرب – فى الأكثر – للتصعيف محتاج إلى درس مستقلّ) . أما فى الآرامية (السريانية) فالهمزة فى «أرنب» زائدة .

وإذا قلت أبا إن هذه الكلمة من الأشوريَّة ، فليس معنى ذلك أنَّها غير موجودة فى العقدية (الأكدية) أو غيرها من الأعراييَّات .

* وهنالك كلمة دخلت فى القاموس لأنها سُمِعَتْ فى بعض القبائل ، فيما أحسب ، ولكن لم أرها فى نصّ أدبى ، هى

الرنشاء بفتح ففتح وبالشين المعجمة ، أو بفتح فسكون (وبالثاين أيضاً) .

وقد ترد بالسين معرّفة وغير معرفة ، وقد تأتى بالمدّ . درياسا أى بالألف المقصورة وقد تأتى مهمورة ، كما تأتى فى عدد من الأشكال الأخرى

ولسنا الآن فى تتبع صيغ هذه الكلمة على ألسنة نفر من أشخاص القبائل ، ولكن لا بد من الإشارة إلى أن هذا التعبير « درناشا » تعبير آرامى معناه بنى آدم أو الناس .

(راجع فى ذلك كلّه تاج العروس – الكويت ١٥ . ٤٤٨ و ١٧ ٧٩)

* وهناك شواهد جمة منها .

– ليس من برم صيامم فى مسفر .

– قول طرفة (والشاهد فى قوله . «قدى»)

فى وصف سيفه

أخى ثقة لا ينثنى عن ضريبة

إذا قيل مهلا ، قال حاجزه : قدى

ـ قول النابغة : (والشاهد فى « مقدِ » بكسر الدال) :

قالت : ألا ليتَمَا هذا الحمامُ لنا
إلى حمامتنـــا مع نصفه فَقَـدِ

ـ وقول النابغة أيضا : (والشاهد فى « قد » بكسر الدال) :

أفِدَ الترحّل ، غير أن ركابـــا
لما تَزُلْ برحالنا وكأن قَدِ

أما إذ نحن أتينا إلى ليس ، وليت ، ولات ، وأيم ، ولعمرى ، فإننّا نقف حينئذ أمام أمواج تتلاطم .

والذى أريده من هذا البحث أن اللغة العربية ـ ككل لغة أخرى ـ قد بقى فيها من الأصول القديمة أشياء لا تنطبق عليها القواعد المقعولة فيها اليوم . فليس من الضرورى فى مثل تلك الحال أن تمتح الصفحات الواسعة لتعليل وتخريجٍ يكونان فى أكثر الأحيان خيالاً شخصياً وربما أصاب الحق وربما لم يصب الحقّ فمن المستحسن أن نمر بهذه الرواسب بالكلمة المعروفة « كذا وردت » .

ولا بدّ فى ختام هذا المقال من كلمتين . كلمة تتعلق بعلماء اللغة عندنا ثم كلمة تتعلّق بى .

أوّلا : كان علماء اللغة القدماء عندنا وعلماء النحو وعلماء الفقه يحيطون بعدد كبير من وجوه المعرفة الإنسانية ، فالإمام مالك بن أنس ، والإمام أبو حنيفة ، وسيبويه ، والمرتضى الزبيدى ، وأمثالهم ، تنكشف بحوثهم عن معارفَ فى الحساب والجغرافية والفلك والتاريخ . وكانوا إذا أرادوا تعليل أمر أو تخريج قول أحالوا عقولهم فى ميادين تلك المعارف ، فكانوا يصيبون كثيراً ولا يخطئون ، أو يخطئون قليلا .

أمّا فى أيامنا فهنالك وهمٌ اسمه الاختصاص : نجد فيه قوماً لا يعرفون إلّا اللغة ويقولون : هذا اختصاصنا وهذا فى الحق خطأ إنّ الاختصاص هو الإحاطة بميدان واسع من نطاق المعرفة الإنسانية ثمّ التوفّر على جانب محدود معيّن منه . وإلّا ، فالذى لا يعرف إلّا اللغة لا يعرف اللغة .

بين يدى كتاب نحو فى شرح ألفيّة ابن مالك فى حزئين ضخمين يقلاّن قليلا عن ألف وأربعمائة صفحة بدأ الشارح شرحه بمطلع الألفية

قال محمّد هو ابن مالك
أحمد ربِّى الله خير مالك

فقال :

ـ قال : فعل ماض .

ـ محمد : فاعل .

ـ هو : مبتدأ .

ـ ابن . خبر ، الخ الخ . وهو يعرب كل كلمة فى هذه الألفية .

وكنت أقلب هذا الشرح الذى يقرؤه أهل الاختصاص فوقع نظرى اتّفاقاً على هذا البيت من الألفيّة (ص ٢٦١) .

ومثــلُ كان مسبوقاً بمـا
كَأَعْطِ مادُمْتَ مُصِيباً دِرهَمَا

فإذا الشارح يقول (ص ٢٦٢) .
« أعط المحتاج درهما ما دمت مصيباً » .

ويبدو لى أن هذا الشرح لم يستقم عنده (ولا هو استقام عندى أيضاً) فراد الشرح قائلا أى مدة دوامك مصيباً » وكانت هــذه الجملة أشد استعلاقا من أختها الأولى فاضاف جملة ثالثة هى « والمراد ما دمت تحب أن تكون مصيباً » فزاد بهذا الشرح الثالث تعقيداً ثالثاً .

أما المعنى المقصود ، وهو واضح : لو كنتَ تملك درهما واحدًا فلا تتأخّر عن العطاء (عن الإحسان إلى الآخرين)

ثانياً : ليس لى اختصاص باللغات الأعرابية . وما أعرفه منها لا يعدو مطالعات يسيرة متفرّقة . وإنّى واثق من أن عددا من الحقائق التى أوردتها ومن الآراء التى أبديتها محتاج إلى تقويم أو تصحيح أو تحرير ولكن لما كان أهل الاختصاص لايحومون حول هذا الموضوع وأمثاله ، وإنّ الميدان يبقى خالياً لمن كان متلى فيمدّ فيه رأيه .

عمـر فروخ
عضو المجمع من لبنان